مقياس فلسفة التاريخ والحضارة

المستوى ماستر واحد

تخصص: فلسفة تطبيقية

الأستاذ المسؤول عن المقياس: د. بن رابح أحمد

الجزء الأول

سنحاول بداية الإجابة على بعض التساؤلات التي نرى أنها تمثل حاجة فكرية ضرورية لكل دارس لفلسفة التاريخ.

أولا: ما المقصود بفلسفة التاريخ عموما ؟ وهل مدلولها يتغير من فيلسوف إلى آخر؟ وأكثر من ذلك هل كل فلسفة جعلت من التاريخ موضوعا لبحوثها؟

ثانيا: ما هي أهم الاتجاهات التي عرفتها فلسفة التاريخ منذ نشأتها إلى يومنا هذا؟

ثالثا: ما هي الدواعي التي دفعت الفلاسفة إلى بناء خطاب فلسفي حول التاريخ؟ وبالتالي ما هي الأهداف أو الغايات التي من أجلها ازدهرت وتطورت فلسفة التاريخ؟

أولا: محاولة لتعريف " التاريخ" (Histoire).

1- الطابع الإشكالي لمعنى مفردة "تاريخ":

لا ريب أن نقول أنه من أكثر المصطلحات المتميزة بتعدد دلالتها مصطلح "***التاريخ***"، ويمكن التماس ذلك في مختلف الاستعمالات التي نسمعها أو نقرأها، ويقول عبد الله العروي في بداية كتابه "مفهوم التاريخ" ‹‹ *نذكر كلمات تاريخ/ مؤرخ/ علم التاريخ، ونرى في الحين أن الغموض كامن إذا وضعناها مقابل كلمات أخرى (...) نقصد بالكلمة (تاريخ) شأنين مختلفين: مجموع أحوال الكون في زمان غابر ومجموع معلوماتنا حول تلك الأحوال*››[1]، هذا التأكيد من طرف العروي له أهميته كونه يضعنا على الأقل أمام ما وقع من أحداث لم تعد موجودة، والمعرفة التي نشكلها حول تلك الأحداث باعتبارها مشكلة لوعينا حول الماضي، وهذا ما يطرح صعوبات ليست بالهينة حول التاريخ. وأكثر و أبلغ من ذلك فإن بول ريكور

[1] عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، م.م.س، ص33.

ينفي إمكانية إيجاد معنى للتاريخ في وقتنا‹‹ إنه لمن الإدعاء زماننا إيجاد جواب لمشكلة معنى التاريخ. فهذا يستلزم كفاءة عالم التاريخ والاجتماع واللاهوت››[2]

وإذا عدنا إلى اللغة العربية وبالضبط في القرآن الكريم، فلا نجد ذكرا لهذا المصطلح، وهذا لا يعني انعدام أو غياب معنى "التاريخ" على الأقل بمعناه الدال على الأحداث الماضية، فالإشارة إلى قصص الأولين من الأنبياء والرسل وحتى شخصيات أخرى *كهابيل وقابيل وذي النون وفرعون*، والأحداث التي عاشتها الأمم كقوم عاد وقوم لوط، والمدن القديمة كعاد وثمود موجودة ومقاصد ذلك متعددة. وأدى هذا في كثير من الأحيان إلى النظر إلى تاريخ البشرية انطلاقا مما ورد في النصوص الدينية ونجد هذا خاصة عند اليهود والمسيحيين*، من هنا يمكن القول أن التاريخ لم يغيب عن وعي الشعوب التي عرفت تفاعلات الديانات التوحيدية، ومن جهة ثانية فإن الأساطير القديمة التي وصلتنا، تحتوي هي الأخرى على إشارات هامة متعلقة بالماضي البشري، وبتكوين العالم وخلق الإنسان.

الأمر المهم هو أن "التاريخ" بالمنطلق العام هو سرد(رواية) وحدث (Evènement) (Récit) هذا السرد وهذا الحدث يتعلق بزمان الماضي، والمشكلة الأولى التي نطرحها هذه الثنائية، هي أنهّ ليس كل خبر يتعلق بواقعة وقعت أو حادثة حدثت، صحيح، ومن هنا يجب من الناحية الموضوعية التمييز بين الأحداث الماضية التي وقع فعلا وما يرويه الرواة عن الذي حدث وهذا ما يجعله متصلا بالذاكرة، وهذا ما دفع بول ريكور إلى القول: ‹‹ وبمعنى ما فإن وضع تاريخ معيّن، بما هو ظاهرة تسجيل، ليس من روابط على مقدرة وضع تاريخ، تأريخ، على إمكانية أصيلة للأرخنة وتدوين تاريخ، ملازمة للتجربة الحية، وبشكل خاص للشعور بابتعاد الماضي وتقدير العمق الزمني››[3]، ومادام الأمر على هذا الحال، أي مادام التاريخ مرتبط بالذاكرة فلا يخلو التاريخ من صعوبات وتعقيدات تعزز طابعه الإشكالي.

والاطلاع على معنى "التاريخ" عند الفلاسفة المحدثين والمعاصرين على حد سواء، فالقرن التاسع عشر اعتبر في نظر مفكري الغرب بأنه " قرن التاريخ" بسبب الفيض من الدراسات وما رافقها من تعدد الدلالات لهذه المفردة، حيث وصل الأمر عند كثير من الفلاسفة إلى عدم التمييز بين الوعي والتاريخ، فإذا كان كانط قد ميز بين "العقل الخالص" والعقل العملي" منذ القرن الثامن عشر، فإن القرن التاسع

---

[2] **Paul Ricœur**, Histoire et vérité, Editions du Seuil, Paris, 2001 , p. 93

. * سيتم التطرق إلى هذا الموضوع لاحقا

[3] بول ريكور، الذاكرة، التاريخ، النسيان، تر جورج زناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط 1، 2009، ص 235.

عشر عرف ميلاد مصطلح جديد هو "العقل التاريخي"*. وتميزت الدراسات الفلسفية الكبرى التي ميزت نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين تدور حول التاريخ ونشير هنا فقط إلى نيتشة و أخرين.

2- في معاني التاريخ:

2-1 الأصل اللغوي:

إن الكلمات والمفردات شأنها شأن الكائنات الحية، لها أصولها وبداياتها في الثقافات البشرية عموما، فالمفردة تولد وتنمو وتتطور في مختلف حقول الاستعمالات وبالتالي يصل الأمر ببعضها أن تدخل مجال المعرفة النسقية، من هنا الوقوف عند هذه الأصول يسمح ويساعد على ضبط أكثر للدلالات المختلفة التي أصبحت عليها في ظل الاستعمال الاصطلاحي الحالي، وكلمة " تاريخ " لا تخرج عن هذا المنطق، لذلك الوقوف عن الدلالات الاشتقاقية يبقى إجراء ضروريا من الناحية المنهجية.

لسان العرب جاء فيه التأكيد على أن التاريخ مرتبط بالوقت والتوقيت، أي وضخ تاريخ لحادث أو حوادث ما حيث جاء فيه ‹‹ *التأريخ تعريف الوقت، والتوريخ مثله. أَرّخ الكتاب ليوم كذا، وقّته والواو فيه لغة، (...) وقيل إن التاريخ الذي يؤرخه الناس ليس بعربي محض، وأنّ المسلمين أخذوه من أهل الكتاب، وتأريخ المسلمين أرّخ من زمن هجرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وكتب في خلافة عمر رضي الله عنه، فصار تاريخا إلى اليوم* ››[4]، يتضح إذن أن الفعل أو الاسم عند العرب يشيران إلى الوقت وما يرتبط به مكن أحداث.

إذا كان الحال هكذا في اللغة العربية، فإن اللغات الأخرى ورد فيها مصطلح آخر يشير الكلمة العربية "تاريخ"، ففي اللغة اليونانية استعملوا مفردة "ISTORIA" وتعني المعرفة المكتسبة بالاستقصاء والتحري، بينما في اللغة اللاتينية نجد كلمة "HISTORIA"، وكلمة " HISTOR" تعني الحكيم والشاهد والقاضي[5]، ويقول فرانز روزانطال في شرحه لكلمة إيسطوريا اليونانية: ‹‹ *إن الأصل التاريخي لكلمة Istoria الإغريقية ذو أهمية كبرى. فعندما نشطت الحركة الفكرية والسياسية نشاطا عظيما في الدويلات الأيونية في القرنيين السادس والخامس قبل الميلاد، كان تعبير istoria يقصد به البحث عن الأشياء الجديرة بالمعرفة أي نوع من المعرفة الذي كان يهم كل مواطن في دولة المدينة الواحدة، ألا وهي معرفة*

* و يعد ديلتاي الفيلسوف الألماني (1834 – 1911) هو أول من استعمل هذا المصطلح.

[4] ابن منظور، لسان العرب، مادة أرخ http://www.baheth.info/all.jsp?

[5] نقلا عن Dictionnaire de l'Antiquité, page 1075, article Historiographie grecque, édition PUF sous la ،direction de Jean Leclant, 2005.

العادات والمؤسسات المعاصرة أو الماضية. وسرعان ما أصبحت كلمة Istoria مقتصرة على الأحداث التي رافقت نمو هذه الظواهر، وبذلك ولد تعبير التاريخ بمعناه الشائع››[6].

2.2 – المعنى الاصطلاحي:

أ– في الفكر العربي

إنّ المعنى الذي أخذته مفردة " تاريخ " في مؤلفات المفكرين المسلمين، تميزت بتأكيدهم على ارتباط " التاريخ " بالرواية والسرد للأحداث التي عاشها الأقدمون أفرادا كانوا أم جماعات وأمما.

يقول المسعودي (896 – 957 هـ)عن التاريخ أنه : ‹‹ *رواية أخبار العالم وما مضى من أكناف الزمان من أخبار الأنبياء والملوك وسيرها والأمم ومساكنها* ››[7]. واضح التحول والاختلاف الوارد في تعريف المسعودي مقارنة مع ابن منظور، فهنا لا يتعلق الأمر بالميقات بل انتقال الفكر إلى مستوى آخر وهو رواية الأخبار أو سردها بشكل عام دون التمييز بين الأفراد والأمم. و يذهب وابن خلدون (1332 – 1406 م)، إلى إعطاء نفس المعنى لكن بشكل أكثر شمولية ودقة من التعريف الذي قدمه المسعودي، فالتاريخ عند ابن خلدون يتراوح بين الفن والخبر حيث يقول: ‹‹ *أعلم أنّ فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية، إذ هو يوقفنا أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم* ***فائدة الاقتداء*** *في ذلك لمن يرومه أحوال الدين والدنيا* ››[8] . المهم الذي ورد في هذا التعريف زيادة على اعتبار ابن خلدون التاريخ فنا (يفهم من هذا أنه علم)، تأكيده على الغاية المرجوة من وراء هذا العلم وتتمثل في " الاقتداء " بالماضين. وفي المقدمة دائما نجد تعريفا آخر للتاريخ تتضح فيه علاقة علم الاجتماع أو علم العمران بالتاريخ جاء فيه: ‹‹ اعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لذلك العمران الأحوال مثل التوحش والتآنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض (...) ››[9].

---

[6] فرانز روزانتال، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة أحمد صالح العالي، مراجعة توفيق حسين، مكتبة المثنى، بغداد، ص ص 16-17، نقلا عن وجيه كوثراني، تاريخ التأريخ – اتجاهات، مناهج، مدارس، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط 2، 2013.

[7] المسعودي، ابو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت 346هـ/957م) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، ط4 ، (مصر ، 1964) ج 1 ، ص12 .

[8] ابن خلدون، المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2004، ص 21.

[9] ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر، ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2004، ص 47.

ب – المعنى الاصطلاحي في الفكر الغربي الحديث.

في اللغة الإغريقية فإن مصطلح (historia) تعني المعرفة بالتقصي أو البحث كما بينا سابقا، أو البحث عن الأشياء الجديرة بالمعرفة، ويرد ظهورها البعض إلى القرن السادس ق.م، أما في التقاليد الألمانية فإنهم يستعملون كلمة (Geschichte) للإشارة إلى كل ما يتعلق بالتاريخ – الماضي.

انطلاقا مما قيل سابقا لا يمكن اعتبار كل ماهو متصل بالزمان الماضي "تاريخ"، بول ريكور يميز بين الزمان التاريخي و"أشكال أخرى للزمان" حيث يقول: ‹‹ *يقابل ديالكتيك الفضاء المعاش والفضاء الهندسي والفضاء المأهول ديالكتيك للزمان المعاش والزمان الكوني والزمان التاريخي*››[10]، فالزمان التاريخي ليس هو الزمان النفسي الذاتي الذي نعيشه داخليا، ولا الزمان الكوني الذي يخضع إلى حركة الكون، بمعنى أنّ ‹‹ *الزمان والتاريخ لا يسيران كما نعرف (...) إن الجزء الأعظم من تجارب الماضي تبقى في غير متناول المؤرخ*››[11]، فزمان الأحداث وزمان التاريخ غير متطابقين، لأنه كما يذهب إلى ذلك ريكور مستندا إلى أعمال بنفينيست فإن زمان التاريخ يتم من خلال إرجاع كل الأحداث إلى حدث مؤسس يحدد محور الزمن[12]، وبالتالي فإن الاعتماد على التقويم يسمح بصناعة الزمان التاريخي، ولهذا السبب نجد المؤرخين يميزون بين المصطلحات التي يشيرون بها إلى مختلف الفترات الماضية كالفترة والمرحلة والحقبة أو العصر مثل العصر الإسلامي والعصر المسيحي، عصر النهضة، والقرون ...إلخ، وفي هذا الإطار العام يميز ميشال دو سارتو (Michel de Certau)* بين التاريخ المكتوب والتاريخ الشفهي أي ما تناقلته الأجيال[13]، ومع تطور المعرفة أصبح التاريخ يجمع بين الممارسة والخطاب، ويشرح ذلك كما يلي: ‹‹ أنا أفهم التاريخ تلك الممارسة ونتيجتها، أو العلاقة بينهما على صورة مُنْتَج، (...) فالتاريخ هو تفسير ما يقال حول الحدث الذي وقع. فالتسمية "تاريخ" إذن وضعية تقارب متميزة بين الإجراء العلمي والحادثة التي يدرسها ››[14].

---

[10] بول ريكور، الذاكرة، التاريخ، النسيان، م.م.س، ص 234.

[11] **Michèle Riot-Sarcey,** https://doi.org/10.4000/rh19.414. Temps et histoire, Revue d'histoire du XIX siècle.

[12] انظر بول ريكور، الذاكرة، التاريخ، النسيان، ص 234.

* فيلسوف ولاهوتي ومؤرخ فرنسي (1925 – 1986).

[13] انظر Michel de Certeau, L'écriture de d'histoire, Gallimard, 1975, pp 14-15.

[14] Michel de Certeau, L'écriture de l'histoire, p.37.

3.2 – تاريخ علم التاريخ:

وتجدر الإشارة إلى أنّه على عكس ما كان موجودا عند المسلمين، فإنّ التاريخ لم يكن في أوروبا حتى القرن السابع عشر انشغالا علميا، وذلك راجع لأسباب لازمت الوضع الفكري آنذاك. فمع تجدر قوالب الفكر الكنسي وسيطرة التصور اللاهوتي للتاريخ، وانهماك الملوك في إدارة المناورات والحروب، فما كُتِب في الشأن التاريخي لا ينفصل عن الصورة التي رسمت حدودها هذه الوصاية الدينية–السياسية، وهو في حقيقته تاريخ ديني أو تأريخ لبطولات ومغامرات وأفراح الملوك والأمراء. وإذا ما نظرنا إلى الأعمال الفلسفية كما وجدت في النظريات السياسية، خاصة منها إسهامات توماس هوبز(1588-1679)(Thomas Hobbes)، فإن مكانة علم التاريخ مستبعدة لأسباب ارتبطت بالرؤية الفلسفية ذاتها، ومن أهمها الطابع الجزئي الذي تتميز به الأحداث التاريخية، حيث اعتبرت حسب بينوشي (Binochet) – في كتابه المنابع الثلاثة لفلسفات التاريخ **(1764-1798)**– مشوشة على الغرض العام الذي أراد تحقيقه هوبز وهو *المجتمع المدني المستقر<< فلأن التاريخ يثور (s'affole) بدلا من أن يبحث عن أسس التبصر كعقلنة تجريبية للفعل السياسي، فإن هوبز يبعد ببساطة هذه المَهمة خارج المعقولية الحقة التي لا يجب أن تعتبر سوى التعميمات المنهجية والضرورية* >>[15]. وفي الفكر الإنجليزي دائما لم يميز ف.بيكون (1561- 1626) بين التاريخ والتجربة باعتبارها ممارسة للحكمة العملية << *وبهذا، إننا نجعل من التاريخ والتجربة شيئا واحدا هو ذاته* >>[16]، وهذا ما يمنعه أن يكون علما. من هذا المنطلق مُنِحَ للتاريخ دورا اعتباريا (تقييميا) يكون من خلاله موجها لسلوك الحكام اعتمادا على تجارب الماضي.

وبسبب ما حصل من تغيرات مست مختلف النشاطات خاصة منها الفكرية، شهد القرن الثامن عشر بدايات الاهتمام بالتاريخ وتأكدت ضرورة إخراجه من التهميش الذي كان يعاني منه، وازدادت محاولة البحث عن الإجراءات التي تجعل منه معرفة موضوعية. وفي هذا الصدد كتب دالامبير (Jean Le Rond D'Alembert)(1717-1783) في *موسوعة العلوم<< إنْ لم يكن موجها بالفلسفة، فإنّ علم التاريخ هو آخر المعارف الإنسانية. فالدراسة تكتسب أهمية أكثر لو كتب القليل عن تاريخ الرجال، عوض*

---

[15] **Binochet Bertrand**, Les trois sources des philosophies de l'histoire (1764-1798), Québec, Les presses de l'université de l'Aval, 2008, pp.12-13.

[16] **F.Bacon**, De dignitate et augmentis scientiarum, The Works of Francis Bacon, 1879, t.1 II, 1 :495.‹‹ Et, de fait, nous tenons l'histoire et l'expérience pour une seule et même chose››. نقلا عن بينوشي، المرجع السابق، ص. 13.

أن يكتب بهذا الحجم حول بذخ الملذات والضعف >>[17]. فالمبادرات الأولى التي حاولت التخلص من هذه الصورة التي كانت عليها حالة التاريخ، تميزت بالتنديد بالوضع، والبحث عن الجديد. فولتير (Voltaire)(1694–1778) لم يخف ازدراءه من ذلك، فحاول تصويب الوضع بمبادرة جديدة ظهرت في أهم مؤلفاته التاريخية وهي **رسالة في العادات** (Essai sur les mœurs) (1756)* ، و**قرن لويس الرابع عشر** Le siècle de Louis XIV)، حيث كتب في الأول: << *إنّ تاريخ أوروبا أصبح تقريرا ضخما لعقود الزواج والأنساب والتنافس على الألقاب، التي بقدر ما تنشر الظلام في كل الجهات، تنشر الجفاف، اللذين يخنقان الأحداث الكبرى، فالمعرفة بالقوانين والعادات مواضيع جديرة أكثر بالاهتمام*>>[18]، لهذا، فإنْ لم يشهد القرن الثامن عشر الانطلاقة الحقيقية لهذا النوع من الدراسات، فإنه تضمن بفضل مجهودات العديد من الفلاسفة والمؤرخين ما سيكون عليه في القرن التاسع عشر من حيث غزارة الدراسات التاريخية وبالتالي التأطير الفلسفي للدراسات التاريخية كما تمناه فولتير. لكن رغم التشاؤم الذي كان باديا عند دالامبير وفولتير، فإنّ جورج غوسدورف (George Gusdorf) يلاحظ أنّ الاهتمام بالكتابة التاريخية شهد ازديادا في القرن الثامن عشر مقارنة مع القرن الذي سبقه أدى إلى تغير مهم، ذلك أنّ << *ازدياد الإصدارات التاريخية لزم عنه انخفاض الإصدارات اللاهوتية* >>[19]. وهذا التحول في التقاليد الفكرية في تقديره يعكس ظهور وعي أنثروبولوجي جديد[20]. وهذا يعني أنّ النصف الثاني من القرن الثامن عشر عرف عناوين وإن اختلفت أماكن تأليفها، فإنها تبقى محافظة على أهميتها وقيمتها على صعيد الدراسات الفلسفية التاريخية، << *ففي سنة 1764 نشر إسحاق إيزلان (Isaac Iselin) أول وأكبر ثيوديسيا حول التاريخ Über die Geschichte der Menschheit؛ في سنة 1765، فولتير يتكلم لأول مرة عن فلسفة التاريخ من أجل عنونة كتاب صغير صدر تحت إسم L'abbé Bazin؛ في 1767، آدم فرغوسون ينشر أول أكبر<< تاريخ طبيعي >>، اجتماعي- اقتصادي – سياسي للبشرية تحت عنوان (Essay on history of the civil society)* >>[21]، وإلى هذه القائمة يمكن أن نضيف

---

[17] **D'Alembert**, Mélange de littérature et d'histoire, Berlin, 1753, t. II, p. 3.

Essai sur les mœurs et l'esprit des nations et sur les principes de l'histoire depuis Charlemagne jusqu'à Louis XII. والعنوان

*الأصلي لهذا المؤلف الذي أصبحت له مكانة معتبرة بين أوساط المتعلمين هو:

[18] **VOLTAIRE**, Essai sur les Mœurs, ch. 74, in fine. نقلا عن G. Gusdorf، l'avènement des sciences humaines dans le siècle des lumières, Paris, Payot, 1973, p.520.

[19]**VOLTAIRE**, Essai sur les Mœurs, 507.

[20] Ibidem.

[21] **Bertrand Binochet**, Les trois sources des philosophies de l'histoire (1764 -1798), Québec, Presse de l'Université de l'Aval, 2008, p.5.

كتاب إ.غايبونGibbon(1737-1794) *تدهور وسقوط الإمبراطورية الرومانية* (History of the Decline and Fall of The Roman Empire) الذي صدر سنة (1779).

النزعة الوضعية والدراسات التاريخية

2- من التاريخ إلى فلسفته

إجمالا، إذا كان تزايد الاهتمام بالدراسات التاريخية يعبّر عن غايات مختلفة ومتعددة، فإن له بالنسبة للفلاسفة له غرضه الخاص، فهم يرومون من وراء ذلك إلى ***غاية مرتبطة بتصور أكثر شمولية***، ولا ينحصر اهتمامهم بالأحداث الجزئية التي أثّرت بكيفية ما في مجرى الواقع الاجتماعي والسياسي. فالمشكلة عندهم تمثلت في الانتقال من تصور ديني للإنسان كما تحدد في نظرية التكوين(يقصد بها الكيفية التي تشكل بها الكون وظهور الإنسان على وجه المعمورة) (la genèse)، إلى تصور آخر بقى محافظا على مشكلة التكوين، ولكن هذه المرة بمنظور عقلاني ينطلق من الحدث ذاته. وبهذه الكيفية يصبح التاريخ بالنسبة للفلاسفة وسيلة تسمح بمعرفة حقيقة التغيرات التي مست وتمس الحياة البشرية، وهذا ما يعكس رغبة تحرك السعي إلى البحث عن طابعه الكلي. فالمناخ الفلسفي- العلمي الذي ساد القرن الثامن عشر في ظل الأنوار، حيث ترسخت فيها مفاهيم مستمدة من دراسة الطبيعة، ألهم كثيرا من الفلاسفة ودفعهم إلى البحث عن النظام الذي افترضوه في داخل العالم الإنساني رغم ما يتميز به من خصوصيات << *فإذا استسلمت طبيعة الأشياء لتحليلات العلماء، فيجب على الطبيعة البشرية وهي أكثر تعقيدا أن تخضع كذلك إلى قانون الفكر الصارم* >>[22]. هذه هي بدايات اقتران التاريخ بالفلسفة، أي أنه لا يمكن النظر إلى الواقع المراد تعلقه، دون النظر إلى طبيعة الإنسان، كما كان الحال عند هوبز أو ج.ج.روسو. وفي ها الإطار، كان الفلاسفة يتساءلون من وراء هذا النوع من الدراسات عن نوعية القوانين التي تخضع لها الصيرورة التاريخية، وبالتالي نوعية القوى المتحكمة في الطبيعة البشرية، وما يسير مصير الأمم. الشيء الذي أدى على صعيد الإنتاج الفكري إلى جملة من الأعمال اتصلت بصورة أو بأخرى بما يتكون عليه **فلسفة التاريخ**. لذلك يعتبر القرن الثامن عشر، من جهة ثانية قرن بداية فلسفة التاريخ، وفي ظله أصبح الفرق بين العلم الطبيعي وفلسفة التاريخ فرقا يتعلق بالموضوع، أما البحث عن المعقولية الواقعية، شكلت غاية مشتركة بينهما.

[22] **Voltaire**, Essai sur les Mœurs, p. 524.

أما في ألمانيا فتميز الوضع بوجود نشاط يبقى محافظا على خصوصياته، ذلك أنّ القرن الثامن عشر شهد هو الآخر ميلاد حركة فلسفية عاد إليها الفضل في وضع دراسات تاريخية أدت إلى ظهور فلسفات تاريخ مختلفة، كانت بدايتها مع لايبنز(W.G.Leibniz) << *إن رؤية العالم الخاصة بعصر العقلانية الألمانية موجودة في مذهب الله والإنسان، التي طورها لايبنز في التيوديسيا* والمونادولوجيا**، وبفضل مجهودات وولف أصبحت ملكا مشتركا للثقافة الألمانية* >>[23]. ويعد كريستيان وولف (Christian Wolf)***من المؤرخين الذين رفضوا تفسير الأحداث التاريخية بردها إلى الصدفة أو العناية الإلهية، فكل ما يحدث، يحدث وفقا لمبدأ العلة الكافية.

وبتأثير حركة الأنوار****، استمر هذا المجهود الذي أصبح غاية عند الفلاسفة، حيث حاولوا بفضله فرض تصور عقلاني حول مجرى الحياة التاريخية رغم تناقضاتها وتناثر أحداثها، ولعّل أبرز هذه المحاولات في العالم الألماني تلك التي شكّلت فيما بعد عصر لايبنز جزءا هاما من نسق هيجل (Hegel)(1770–1831) الفلسفي. تلك المحاولات، على اختلافها وتنوعها بقيت متصلة بالنقاش الفلسفي العام حول التاريخ الذي ميز أوروبا عموما وألمانيا خصوصا في نفس تلك الفترة. فبعد الرواج الذي نالته فلسفة التاريخ الهيجيلية، إذ ألقت بكل ظلالها على الفكر الألماني، بدأ بروز حركة فلسفية ارتبطت بعدة عوامل أهمها محاولة الابتعاد عن الفلسفة النسقية. وبالمجل فإنّ ازدياد وتيرة اكتشافات الحركة العلمية كعامل منافس للفلسفة، حتم ذلك إعادة صياغة الإشكالات الفلسفية خاصة منها ما تعلق بعلاقة الفلسفة بالعلم، الأمر الذي أرغم المدافعين عن الفلسفة بعدم الاستسلام لتفوق النزعة الوضعية، ما أدى إلى إعادة بعث الكانطية ضمن تساؤلات جديدة، واعتبرها أصحابها بديلا حتميا للهيغيلية ونسقيتها، ومحاولة لازمة لإنقاذ الفلسفة رافعين بذلك شعارا << العودة إلى كانط >>.

---

* من أهم مؤلفات لايبنز الميتافيزيقية وهو يتعلق بالعدالة الإلهية (Théodicée) صدر أولا باللغة الفرنسية سنة 1710 ثم باللاتينية سنة 1712.

** عنوان كتاب ألفه لايبنز سنة 1714 أي سنتين قبل وفاته.- و كان صدوره الأول سنة 1721 في ترجمة ألمانية، بينما النص الفرنسي لم يصدر إلا في سنة 1840 في دار Erdmann.

[23] نقلا Félix GUENTHER, Die Wissenschaft vont Menschen, Gotha, Perthes, 1907, p. 151. عن **G.Gusdorf,** L'avènement des sciences humaines au siècle des lumières, Op.cit., p. 526.

***كريستيان وولف (1679- 1754)المؤرخ الألماني ليس فرايدريك أوغيست وولف (F.A.Wolf) الفيلسوف الألماني(1759– 1824).

****حركة الأنوار تعد من اهم الحركات الفكرية التي اشتملت على عدة ميادين علمية فلسفية وفنية عرفت بها أوروبا، دامت طيلة القرن الثامن عشر. وكانت نتيجة لما حدث من تغيرات اتت بها النهضة الأوروبية وحركة الإصلاح الديني.

إلا أن الفكر الألماني بحكم خصوصياته الفكرية، ومن خلال إصرار الجامعات الألمانية على منح الدراسات التاريخية مكانة لم تعدها من قبل، تضمن محاولات أخرى لا تقل أهمية من حيث الأطروحات التي رفعتها، وإنْ بقيت خارجة عن دائرة الاهتمام الكثيف، فلقد استطاعت رغم ذلك، أن تفرض نفسها تدريجيا. ونقصد في هذا الشأن أعمال هيردر، ومساهمات شلاييرماخر فيلسوف الحركة الرومانسية، حيث مست دراساتهم جوانب عدة كانت محل النقاش الفكري العام كالدين، والأدب، واللغة، والتاريخ، فكان لها الفضل في إرساء المنطلقات الأولى لما أصبح يسمى بالحركة الرومانسية الأولى.

انتهى الجزء الأول